



محمد الفيتوري ←

البحر الروماني في لغتي بأفريقيا

بقلم أليس البياع

خيّب ظنون الذين تحاملوا عليه أكثر مما يجب . ان صدور هذا الديوان يحمل دلالات عميقة وهي ان (رحلته الشعرية الفريدة) (٢) لم تتوقف وان وجدانه ما زال ينبض وتجربته تزداد تكثفا وعمقا على مر الايام . . وانه قد استطاع فظلا ان يستفيد من رحلة السنوات التسع بين صدور ديوانيه الاول والثاني .

وحتى يتسنى لنا اختبار ذلك لا بد من القيام بمحاولة لرصد هذه الرحلة الشعرية . وهي ليست محاولة لتقييم الشاعر بقدر ما هي محاولة لفهمه ومدى تطوره من خلال تجربته كشاعر قومي . وربما يقودنا هذا الى ان نسأل : هل الفيتوري شاعر ذو قضية ؟ وكيف استطاع التعبير عنها ؟

والواقع ان الفيتوري شاعر يدافع عن قضية . وافريقيا هي قصتيه . ولكن ثمة فرق في ان نقول ان الشاعر ذو قضية وان نقول انه تصدى للدفاع عن قضية ما . فالشاعر ذو القضية هو الذي يحمل كل ابعاد ومسافات التجربة ، يذبحها في وجدانه واعماقه ، ويعبر عنها متخذاً لنفسه موقفاً ازاهما ، موقفاً يبرز مدى وعيه لكل الجزئيات الصغيرة التي تتمخض عنها تلك التجربة داخل نفسه وخارجها على ان يكون هناك خط رأسي يبدأ من اسفل تتكشف حوله كل جزئيات التجربة التي تعمق قضية الشاعر وتثريها .

ومن هذا الفهم سوف تكون محاولتنا في رصد معالم رحلة الشاعر محاولين في النهاية الإجابة على سؤالنا الذي طرحناه للمناقشة . في بداية الرحلة يحس الشاعر بالأساة والضياع . مأساته كإنسان افريقي اسود البشرة . مأساته الذاتية التي تنطلق منها بمسد ذلك مأساة بلاده . فهو يشعر بالحزن والفتنة والدماة وعدم الانتماء وكان وجهه الاسود يحول بينه وبين انسانيته (٢) .

دميم . فوجه كآني به
دخان تكثف ثم التحم
وعيني فيه كارجوحتين
مقلتين بريح الالم
وانف تحدر ثم ارنمى
فبان كمقبرة لم تتم

وترتبط مأساة الشاعر بالرومانسية في التعبير وبالافراق الشديد في الحزن والتعلق بالاوام ، وكان الشاعر يحاول ان يهرب بها من واقعه القاسي المرير . ولم يتخذ الشاعر من الرومانسية مذهباً له بقدر ما كانت مرحلة ضرورية في بداية تجربته الفنية :

يا ليتني فراش نحل
جناحاه على هيكله شعلتان

(٢) ههنا التعبير منقول عن الاستاذ محمود امين العالم في دراسته

لديوان اغاني افريقيا .

(٣) محمود امين العالم في مقدمته لديوان اغاني افريقيا .

ليس ثمة شك في ان تطورا كبيرا وتفيرا جذريا قد حدث للفن بجميع صورته واشكاله وتعبيراته . وقد ارتبط هذا التغيير بالدرجة الاولى بحركة تطور المجتمع . فبعد ان كان الفن تعبيراً عن قيم المجتمع العبودي الاول اصبح انعكاساً للصراع الدائر بين مختلف القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واصبح كذلك اكثر ارتباطاً بكل الجزئيات الصغيرة لواقع الانسان الحياتي واكثر تعبيراً عنها .

والشعر - كاحد الفنون التي مارسها الانسان منذ عصور الحضارة الاولى يعتبر من اهم تلك الفنون التي عبرت عن حركة المجتمع وصراعاته وتفاعلاته . وكان التعبير الشعري اكثر اتصالاً - بما له من موسيقى وقدرة على النفاذ الى الوجدان الفردي والجماعي - بحياة الجماهير . ومن ثم فانه لا يمكننا ان نغفل الدور الذي قام به الشعراء في الدفاع عن قضايا الانسان المصرية وفي تعميق هذه القضايا واترائها . ولست احاول هنا ان اؤرخ لحركة الشعر ولكنني اردت ان اشير فقط الى ان للشعر دوراً هاماً - ان لم يكن في التعبير عن قضايا الناس - ففي رصد المشكلات والتجارب الانسانية الفردية التي تولد اساساً من الظروف المجتمعية .

فالى اي حد استطاع الشعر العربي ان يتبنى هذا المفهوم ؟ وما هي اهم الاتجاهات البارزة فيه ؟

الواقع ان حركة الشعر العربي المعاصر قد تمخضت اخيراً عن وجود بعض التيارات والاتجاهات الفنية . ولقد حاول احد النقاد (١) بلورة هذه الاتجاهات في مدارس ثلاث : مدرسة الكلاسيكية المرتدة ، ومدرسة المنزع العالمي الجديد ، ومدرسة الفن القومي وقال ان الفن القومي هو الانعكاس الحي للرؤى التي تسبج في وجدان مجتمع ما في لحظات سيكولوجية معينة .

ومحاولة تقسيم الحركة الشعرية الى مدارس ثلاث لم يكتب لها النجاح لانها لم تكن استقراء لما تمخضت عنه دراسة نماذج متباينة من الشعر العربي . ثم ان الناقد لم يحاول تأكيد دراسته بدراسات اخرى متتابعة . الا ان ما يلفت النظر في هذه المحاولة انفراد الفن القومي بمدرسة مستقلة من مدارس الشعر العربي . وذلك ان هناك بعض الدلائل على وجود نماذج من الشعر القومي وان كانت هذه النماذج لم تكون بعد مدرسة لها سماتها الخاصة .

والفيتوري - موضوع دراستنا - احد الشعراء القوميين واحدهم الذين عبروا عن قضايا مجتمعهم بكل حرارة وصدق . وان كان قد انزوى بعيداً عن الاصواء بعد صدور ديوانه الاول « اغاني افريقيا » حتى ان بعض النقاد قالوا ان الفيتوري قد نصب شعره بعد ان عبر عن ازمنة الذاتية تلك الازمة التي تولدت اساساً من لون بشرته الاسود والتي كانت قصائد ديوانه الاول صدى لها .

الا ان صدور الديوان الثاني للشاعر « عاشق من افريقيا » قد

(١) زكريا الحجاوي ، في مقدمته لديوان « اغاني افريقيا » للفيتوري .

يعيش في منقطات الشدى
فوق حدود الوهم .. فوق الزمان

...
يا ليت قلبي قلبه .. ويدي جناحه
وموطني اللامكان ..
وفي قصيدة اخرى يقول :
الليل ..
في كل ليل
يدوس فوق شعوري
جنازة تدفن الحزن
في قيور السرور
سحابة تمطر الموت
فوق روض نصير
وجه اله غريب
معتب ... مقهور ..

وتتكف الاحزان في اعماق الشاعر حتى يكاد يصرخ في سداجة :

...
اذن فاسمعي انني ساعني
ساعزف لحن الجناز الكبير ..
فقد آن لي ان اهز الحياة بحزني
بكل مراتي القبور

وتسيطر الرومانسية على كثير من قصائد الشاعر .. حتى يحس
القارئ في بعض الاحيان بان التميم الرومانسي فيه انفعال مبالغ فيه
لا تتحمله تجربة الشاعر ..
الا انه - وبرغم هذه الاصفاد التي تكاد ان تفرق الشاعر - ما
يلبث ان يتحسس معالم الطريق وجوانب القضية ، قضية افريقيا التي
ما تزال نائمة في حضن حلمها الاسود العجوز الضائع ..
افريقيا
افريقيا استيقظي
استيقظي من حلمك الاسود
قد طالما نمت ... الم تسامي ؟
الم نلمي قدم السيد ؟!

...
قد طالما استلقيت تحت الدجى
مجهدة .. في كوخك الجهد
مصفرة الاشواق ..
تبني بكفيها ظلام القد

فافريقيا عريانة الماضي والحاضر تائهة الاشواق . غير ان الشاعر
يصرخ فيها ان تستيقظ ، ان تنطلق ، فلقد اتى دور الذين يصنعون
الامل والمستقبل :

اجل ..
فانا قد اتى دورنا
افريقيا
انا اتى دورنا

ويستيقظ الشاعر من حلمه الاسود وتستيقظ معه افريقيا ..
فلقد مزق الشاعر اكفان نفسه الحزينة اليائسة . مزق ستائر الظلام
الكثيفة التي كانت تعرقل خطاه الصاعدة :

انني مزقت اكفان الدجى
انني هدمت جدران الوهن
لم اعد مقبرة تحكي البلى
لم اعد ساقية تبكي الدم

وحتى تستمتع الملايين له ، وحتى تتحرك نحو صنع القد ، لا بسد
ان تستيقظ اولاً وان تظهر نفوسها الحزينة ، فالحرية لا تنطلق اساساً

الا من مجتمع صحيح :

فاستمع لي .. استمع لي
انما اذن الجيفة صماء الاذن

ولعل تكرار « استمع لي » وتكرار « الاذن » يعمق معنى الشاعر
ويؤكد . فالتكرار هنا له وظيفته ومدلوله وتوشك جدران الظلمة ان
تنداعى وتسقط . ويبرز فجر افريقيا عملاقاً مشرفاً « عاري الصدر » :
الفجر يدك جدار الظلمة
فاسمع الحان النصر
ها هي ذي الظلمة تنداعى
تساقط .. تهوي في دعر
ها هو ذا شعبي ينهض من اغماضه
عاري الصدر

ومع هذه الرحلة البطولية نستطيع ان نلمس مدى وعي الشاعر
بقضيته ، ومدى قدرته في التعبير عنها ، فهو فد غنى لافريقيا افانسي
الكفاح والثورة والحرية .. وتنطلق الثورة الافريقية الكبرى . ثورة
ملايين العرايا والمضطهدين وتندك حصون الطفلة والقتلة .

هذه هي معالم البداية لرحلة الشاعر .. ولعل من الجدير ان نقف
قلبلاً عند هذه البداية لنسجل بعض انطباعاتنا ، ولننظر كيف استطاع
الفيتوري ان يجاز دروب مشواره الطويل ؟ والانطباع الاول يتركز في
قدرة الشاعر على تصوير نماذج البائسة الكادحة وقدرته على اشارة
شعورنا نحو التعاطف مع مشكلات الانسان الافريقي بل مع قضايا
افريقيا ذاتها . ولم يصبح هذا الشعور مجرد عطف ولكنه تعاطف واع
مع تلك القضايا .

وثمة انطباع هام لا بد ان تتركه مراجعة الديوان الاول للشاعر .
فالقضية العنصرية كانت بارزة اكثر مما يجب . وضاعت افريقيا - في
بعض الاحيان في كابوس اسود ثقيل .. فقد كان السواد يلون كثيراً
من الكلمات « الحلم الاسود ، الجبهة السوداء ، الطفل الاسود ، انا
زنجي ، الطوفان الاسود ، حرية السود ، روحه المسودة ، الاييدي
السوداء ، كتل السود ، الشجر الاسود ، شطآنها السوداء ، الحوائط
السوداء ، اللظى الاسود ، ... الخ .

واذا كان اللون الاسود يرمز عند الشاعر للانسان الافريقي فهو
يرمز ايضا للرؤيا الصبايية التي تطفل نظرتة للواقع ... واقعه الذاتي
وواقع افريقيا ذاتها . وقد يكون اللون الاسود الذي يعكس ثورية
الشاعر ورفضه للظروف التي تختق واقعه - بعض الدلالات الفنية ...
الا ان اللون الاسود اصبح نفمة عند الشاعر (٤) . او بمعنى اخر فان
موقفه الفلسفي من الثورية التي تلاحظ بوضوح في معظم قصائده -
والتي ترمز لها « الكلمات السوداء » التي تفرش الطريق امام كثير من
تجارب الشاعر - لم يكن موقفاً محدداً . او بمعنى اصح فانه لم يأخذ
موقفاً يمكن تفسيره او مناقشته من الثورية التي تنعكس على قصائده .
وثمة انطباع اخر يتجلى في النثرية والخطابة والسطحية التي تصبى
آفة كثير من شعراء اليوم .. وقد تكون هناك بعض المبررات لهذه الخطابة
وذلك لنوع التجربة التي يخوضها الشاعر والتي قد يستلزم التعبير عنها
بعض الحماس خصوصاً واننا سبق ان قلنا ان الفيتوري شاعر قومي .
وهو كشاعر قومي يخضع لنوع من الالتزام . الا ان الالتزام نفسه قد
لا يكون مبرراً مقنعاً عندما نقرأ للشاعر :

لقد عدنا من الحرب الى الحقل ... الى المصنع
لكي نحرت ، كي نيدر ، كي نحصد ، كي نجمع
لكي نبني للغير لكي نطهو ولا نشبع
لكي نصنع حرباً ضخمة اخرى ... لكي نصنع

(٤) محيي الدين محمد - حزن الاحزان في الفارس القديم ، ص ٢٢ .
مجلة الثقافة ، العدد ٥٧ .

ونلاحظ ان تكرار « لكي نصنع » في نهاية البيت الاخير انما يؤكد مدى التزام الشاعر بالشكل والموسيقى الصاخبة التي تؤذي الاذن احيانا .

هناك انطباع اخر على هذه المرحلة من مراحل النمو الفني للشاعر . وهو انطباع يسجل للشاعر تفوقه ومهارته في صياغة الكلمات التي تعبر عن تجربته في انفاق بديع ، وقدرته على التعبير عن اللحظات النفسية العميقة ووصف الجزئيات الصغيرة للواقع المادي . واني لاعتب على الاستاذ مصطفى السحرتي ان اغفل ذكر الفيتوري عندما تعرض للكتابة في احدى مقالاته (٥) عن مجموعة من الشعراء الذين تفتنوا في الوصف والتصوير .

يقول الشاعر في قصيدته « السفر » :

الباب .. والسور .. ولون الحائط السقيم
ودرجات السلم المتسخ القديم
واوجه النوافذ الباهتة الرسوم
تطل منها عين بادية الهموم

ثم يتحدث عن الساحة المعجوز التي تنوء تحت ثقل الحياة ، وعربات الخدم ، وصرخات الباعة :

والناس كلما مضت صرخة القطار
تصرخ في وجوههم بغربة الديار
تهدمت من فوقهم جوانب النهار
وزلفت ارجلهم على بساط نار

...

وجرت الاعين في الوجوه كالاكر
وانقلت كل يد حقيبة السفر
فكم فم على فم هنالك انتحر
ودمعة واقفة كأنها حجر

...

وكانت الساعة في الجدار تنتظر
حين مضى بندولها يهتز في صجر
كانه صاعقة في ساعة القدر
كانه يضرب في بناية البشر

ولعل هذه القصيدة وقصيدة « تحت الامطار » التي يقول فيها الشاعر :

ايها السائق ... رفقا بالخيل المتعب
قف .. فقد ادمى حديد السرج لحم الرقبه
قف .. فان الدرب في ناظرة الخيل اشتبه
هكذا كان يفنى الموت حول العربه
وهي تهوي تحت امطار الدجى مضطربه

...

غير ان السائق الاسود ذا الوجه النحيل
جذب المعطف في ياس .. على الوجه العليل
ورمى الدرب بما يشبه انوار الافول
ثم غنى سوطه الباكي .. على ظهر الخيول ..
فتلوت .. وتهاوت .. ثم سارت في ذهول

يؤكد اننا لا يمكننا ان نرفض تماما الشكل العمودي في بناء القصيدة العربية ... وان هذا الشكل يصلح للتعبير عن كثير من التجارب لو توفر للشاعر فقط اختيار السلم الهارموني المناسب للتعبير عن تجربته .

وهاتان القصيدتان - تستحقان منا دراسة مستقلة . فقد اثبت الفيتوري قدرة الشعر المقفى الفاتحة على الوصف والتصوير والتوكيد في التعبير واستخدام الالفاظ الوجيهة استخداما فنيا دقيقا . ولم

يفق الشاعر عند هذا الوصف الموضوعي (٦) بل كشف لنا عن مشاعر استيائه او بمعنى اخر فانه تعدى مرحلة الوصف الموضوعي الى مرحلة مزج فيها مشاعره وحدد موقفه الفلسفي وتعاطف مع القيم الانسانية التي تبرز من خلال رسمه للوحة الفنية .

الا ان هاتين القصيدتين تثيران كثيرا من التساؤل في نفوسنا، فهما بميدانان تماما عن قضية الشاعر الاساسية .. وهما اكثر جودة من كثير من القصائد التي تحدث فيها عن افريقيا .. ولا نملك هنا الا ان نسجل احتجاجا وعلامة استفهام كبيرة لشاعرنا .

قلنا ان الفيتوري شاعر قومي ، وافريقيا هي وطنه الاكبر، ماضيها وحاضره وغده ومن اجل هذا الوطن كتب وغنى .. وقلنا ايضا في بداية هذه الدراسة انه قبل صدور الديوان الثاني للشاعر قال بعض النقاد ان الفيتوري قد نصب شعره لانه كان صدى لازمته الذاتية التي لم تفرش لها طريقا في ارض الواقع الخصبة .

الا ان مراجعة الديوان الثاني للشاعر « عاشق من افريقيا » تكشف لنا عن جوهره الاصيل وعن روح النضال التي تتجدد في اعماقه ووجدانه فهو ما زال يعني لافريقيا :

لم تمت في اغاني ، فما زلت اغني
لك يا ارض انفعالي ، وحزني
للملايين التي تنقش في الصخر ، وتبني
والتي ما فتئت تبديع فني
والتي تعرف اني ..
انا منها .. وهي مني ..

فلم ينفصل الشاعر عن واقعه ولكنه اصبح اكثر قربا منه . فقد مزج بين ذاته الفنانة وبين اعماق تجربته وهذا المزج لم يجعل الشاعر يفقد رؤيته الواعية للواقع ، بل استطاع ان يعمق هذه الرؤيا وان يكشف الدروب التي ما تزال مظلمة فائمة ، وعرف ان عليه مواصلة رحلته الطويلة :

لم تمت في اغاني
وفي صدرك كلمة
لم تقلها شغفناي
وعلى وجهك غيمة
لم تمزقها يداي
انت يا من تهيئ الشمس
في كل صباح وعشية
من دماي
لتنيري خطوات البشريه
بخطاي

ولم تعد الحرية قضية عنصرية كما كان ذلك واضحا خلال تجارب الشاعر الاولي . ولكنها اصبحت قضية المصلوبين والقنلى في كسل مكان . فالشاعر يفتح وجدانه على العالم كله عندما يكتب :

اكتب يا جبار الاحزان
اكتب باسم جلال الانسان
باسم وجوه خلف القنصيان
وجوه لم تعرفها بعد
باسم القنلى في كل مكان

وتزداد الرؤيا وضوحا امام الشاعر فيقف على الاسباب الحقيقية لقضايا الحرية (ان الثورات تموت وتولد في الانسان) وقد كان ممن الممكن ان يقول الشاعر « ان الثورات تموت وتولد بالانسان » ولكن استخدام حرف الجر - في - غير المعنى كله واضفى عليه وعي الشاعر .. فالثورة يجب ان تنطلق اساسا في الانسان . فالانسان الثوري هو القادر وحده على القيام بالثورة .

وعمق التجربة ومدى ارتباط الشاعر واحساسه بها يفرضان غزارة

(٦) مصطفى السحرتي - المقال السابق .

(٥) مصطفى السحرتي - شعر اليوم ، الرسالة ، العدد ٥٥ .

التجربة الرومانسية

- تنمة المنشور على الصفحة ٣١ -

على التعبير الشعري نفسه بحيث يصبح هذا التعبير ذا ابعاد ودلالات تنسجم مع موقف الشاعر الفلسفي من التجربة ذاتها . ومن هذه البؤرة يمكن فهم المحتوى الداخلي للعمل الفني بصفة عامة .
ولعل من مظاهر التعبير الجيد استخدام الرمز والايحاءات الصغرة وغيرها من وسائل التعبير . ويجب ان يكون هناك نوع من الحذر عند التصدي لدراسة بعض النماذج الشعرية التي تستخدم التعبير الرمزي حتى لا نحمل النموذج الشعري الذي نقوم بدراسته الوانا معينة من التفسير فوق طاقته ، كما فعل الدكتور لويس عوض في بعض دراساته عن الشاعر صلاح عبد الصبور والاسناذ نجيب محفوظ لانه لا يمكن ان نحيل العمل الفني الى مجموعة من الرموز وعلى الدارس ان يفك طلاسمه ففي تصوري - خصوصا عندما نتعرض لدراسة الشعر - ان مهمة الناقد او الدارس هي الفاء بعض الضوء على الرؤيا الخلفية للعمل الفني - ورؤية الشاعر من خلال هذا العمل - لجوهر العلاقة او القضية او الموضوع الذي يعبر عنه . على انه لا يجب ان يكون هذا الضوء مبهرا بحيث نحرم القارئ من تشوقه لاستنباط واستكشاف المحتوى الداخلي بنفسه . ومن ناحية اخرى فقد نشعر اننا قد فمنا بعملية تربية غير مطلوبة - لكل جزئيات العمل الفني فد لا تكون بنفس الدرجة التي ارادها الشاعر لتجربته ومن ثم فاننا نستطيع ان نلقي اكثر من تفسير لنموذج فني واحد . وفي بعض الحالات نجد ان الشاعر نفسه ربما قصد الى ذلك . . .

ونمة كثير من القصائد استخدم فيها الفيتوري الرمز . . والرمز عند الفيتوري ليس رمزا في كل جزئية من جزئيات العمل الفني . . انه يستخدم رمزا واحدا - في اكثر الاحيان - لتتكف حوله جزئيات التجربة . كما فعل صلاح عبد الصبور في قصيدته التي تحدث فيها عن الحب واستخدم « الطفل » رمزا لحيه الاول
والفيتوري ايضا يستخدم الرمز في الكتابة عن افريقيا (افريقيا عند الشاعر مجموعة كبيرة من التجارب التي تتكف داخلها رؤيته لقضايا الحرية والاستقلال وعذاب الانسان الافريقي) وهو يتحدث عنها كما يتحدث الى امرأة جميلة . . كما يتحدث عن فتاة ربط بها مصيره . يقول في قصيدته « عصر الميلاد » :

وتطلعت الى عينيك والشعر سلاحي
عاري الجبهة ، كالفجر مغطى بجراحي
اتلقى منك اعداءك . . اعداء كفاحي
الذين اقتصبوا عرضك مره
حملوا عارك زهره

وفي قصيدة « ليلة السبت الحزين » يقول :

الليلة . . الليلة يا حبيبتي
كانت مع السحب عيونتي

وانا خلف جداري جثة يسجنها جدار
اكبر مما تبصرين انت يا حزينة العينين
حالك الظلمه . . حالك النهار
يدفنا . . يحفر قبرنا في كل يوم مرتين
ونحن بعض جثتين
ليس على وجهيهما الا ابتسامة احتقار
وشهقة احتضار

الليلة الدموع . . الليلة الندم
مليون زهرة تسحقها قدم
وجه قتيل يتنسم
شمس نحيس دم

وفي قصيدة اخرى يقول :

تمنيت . . لو لم تقم بيننا كل هذي السدود
ولو كنت يا ابعد الناس عن مقلتي
ويا اقرب الناس مني اليا
تمنيت . . لو كنت بين يديا

تمنيت يا اجمل الفانيات جمالا
اذا خجلت مقلتناك
او التهمت وجنتناك اشتعالا
ويا اعظم الفاتنات نقاء
وارفعهن سماء
وابعدهن منالا

تمنيت لو كنت انت معي الان
انت معي . . انت
انت بعينيك . . صوتك . . شعرك
هذا الدجى المخضب المبدع
امرغ في حقله الاستوائي
في موجة الشفقي الشقائي
امرغ في لحظة كبريائي
واشرب من ادمي
وتجتاح روعي اجراس فجرك
فاسقط في موضعي
ويغمي علي
وتأخذني غفوة فوق صدرك

واستخدام المرأة كمعادل رمزي لقضية الشاعر - اذ ان المسراة بما تصف به من جمال وعذوبة وبما يمكن ان توصف به علاقتها بالرجل من مظاهر العمق - يصبح من اغزر وسائل التعبير . وانا اميل الى تفسير هذه القصائد تفسيراً يعتمد على هذا المفهوم - على عكس مما قد يفسرها البعض - حتى ولو كان الشاعر نفسه - وذلك لان الشاعر قد عبر عن تجربته بتورية وانفعال لا يتناسب مع تورية التعبير عن التجارب التي تنبع من علاقة المرأة بالرجل . ثم ان تفسيرها على هذا النحو انما يثري ويعمق ابعاد قضية الشاعر . وليس ثمة - عندما تتعرض لرصد موضوعي لكل هذه النماذج الشعرية ما يجعلنا نتراجع عن هذا التفسير .

ومن نفس هذا المنطلق التعبيري بدأ الشاعر يعبر عن تجاربه مازجا بين احساسه النفسي وبين العالم الخارجي .
وانشاء سير الشاعر منطلقاً عبر دروب رحلته الشعرية يشعسر بالعجز - احيانا - عن صنع حاضره وحاضر قصيدته بالكلمات . . وليس هذا دليلاً على تخلي الشاعر عنها ولكنه الصدق الفني في التعبير وفي ابراز مشاعره الحبيسة :

مكتبة روگسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب

وأحس بشيء مصلوب

ينزع اطرافي المصلوبه

يا احزاني

اني احمل كل خطيئة عصري

وازاء احساس الشاعر المر بانه يحمل خطيئة عصره جميعها
تنتشر الكلمات على شفثيه ولا يتفوه بها لان الله - رمز الحرية سجين
على الارض :

لا شيء لكي اكتب كلمة

فالكلمة في شفة الله

والله على الارض سجين

وعندما يحمل الشاعر الخطيئة ويرى ان الحرية مصلوبة يحس
باللامبالاة .. بالعباد :

الدين عذاب

الفن عذاب

الصمت عذاب

واذا كان الدين والفن والصمت جذور العذاب والمأساة فان هذا
العذاب لم يصبح نعمة عند الشاعر .. لانه مجرد بلورة ل احساسه عندما
تلتوي به الدروب . وربما يدفعنا هذا لان نقف قليلا مع ذات الشاعر
ومع تجاربه الوجدانية .

لقد استطاع الفيتوري ان يكثف كل تجاربه الفنية في بعض
قصائده الوجدانية .. وربما تجتمع كل خطوط النجاح الفني في
قصيدته الجيدة « الى عينين غريبتين » التي يقول فيها :

سيدي

لو لامست عينيك هذي الكلمات العاشقات

صدفة .. لو عبرت خلال الشفتين

فاعتدري عني لعينيك

لانني انكأت في ظلها ذات مساء

سرفت غفوه

داعبت في سكونها النجوم والقمر

نسجت زورقا خرافيا ، من ورق الزهر

وسدت روحا متعبا

سقيت شفة لاهته ..

ثم يقول ..

لو التقينا فجأة ..

لو ابصرت عيناى تلكم العينين

الافقين الاخضرين الفارقين في الضباب والمطر

لو جهمتنا صدفة اخرى على الطريق

وكل صدفة قدر

فسوف التم الطريق مرتين

في هذه القصيدة نحس بمدى صدق الشاعر في التعبير عن مشاعره ..
من خلال الموسيقى الخافتة التي تنساب بين الكلمات في عذوبة ، ومن
خلال الافكار التي تتسلل في سهولة وبلا افتعال . وهذا يجعلها فسي
مطلع قصائد الفيتوري الوجدانية .

وللفيتوري نماذج اخرى في الشعر الوجداني لعل من اهم سمانها
الزج بين التجارب الوجدانية والافكار الثورية . فالدارس لهذه النماذج
يحس بنفس حرارة التعبير عندما يعبر الشاعر عن تجاربه الثورية .
تبقى لنا بعد ذلك بعض الملاحظات العامة عن هذا الشاعر بعد ان
استعرضنا بعض جوانب فنه الشعري .

فقد لاحظت تاثر الشاعر الواضح (بصلاح عبد الصبور) . لقد
حاول التعبير عن نفس المعنى الذي اصبح نعمة كثير من الشعراء . وهو
التعبير عن بساطة الشاعر وبقرة وهروب السلطة من يديه فلا سلاح
له سوى الكلمات . وفي نفس المعنى تقريبا كتب ايضا الشاعر احمد
حجازي .

يقول الشاعر صلاح عبد الصبور :

.. ما كنت ابا الطيب

ولم اوهب كهذا الفارس العملاق ان اقتنص المعنى

ولست انا الحكيم رهين محبسه بلا ارب

ولست انا الامير يعيش في قصر بحضن النيل

...

ولكني تعذبت لكي اعرف معنى الحرف ..

ويرى الدكتور لويس عوض (٧) ان صلاح عبد الصبور فسّد
اقتبس هذا المعنى من قصيدة ت.س. اليوت (اغنية العاشق ج.
الفريد بروك) .

اما الفيتوري فيقول في قصيدته « عاشق من افريقيا » :

صنعتني الكلام

سيفي قلبي

وكل ثروتي شعور ونغم

ولست واحدا من انبياء العصر

لست من فرسانه الذين يحملون رايات النضال

وفي نفس هذه القصيدة اقتبس الفيتوري من قصيدة اخرى
لصلاح عبد الصبور . يقول الشاعر :

صنعتني الكلام

لا وسام .. لا وشاح .. لا ذهب

لا راية تظلني .. ولا لقب

ويقول صلاح عبد الصبور :

اتيتك لا كبر النفس لا تياه

ولا في الكم جوهره

ولا في الصدر وشحت

ولكني انسان فقير الجيب والفتنه

ونمة ملاحظة اخرى تتعلق بالثرية التي تنساب في كثير من
القصائد .

ويجانب هذه الثرية نلاحظ ان الشاعر حاول - في بعض القصائد -
ان يتصنع الحكمة والفلسفة في الوقت الذي لم يكن قادرا فنيا على
خلق هذه الحكمة .. لانها ليست مجرد كلمات مرصوفة في انساق
وتنظيم . انما يجب ان تنطلق اساسا من التجربة التي يمارسها الشاعر .
بلا انفعال او زيف لانها محصلة عدة تجارب وليست التجارب نتاج لها .

يا لومومبا

ان الخونة لا ينتصرون

لا يصبح بطلا من خان قضية شعبه

من اسقط رايته يوم نضاله

من سد عليه طريق الحرية

من قبل اقدام القتل

ابدا .. ابدا .. يا لومومبا

لن يصبح « موبوتو » بطلا

حتى لو وضع الاغلال بكفيك

هذا هو نموذج واحد على الثرية والسطحية في التعبير . وربما
كان (لومومبا) موضوعا ناجحا لبعض الشعراء ولكن الفيتوري ولا شك
قد احقق في الوصول الى ابعاد التجربة التي عاشها البطل الافريقي .
لقد لاحظت ان هذا المستوى في التعبير يحتضن جميع قصائد
الشاعر التي تحدث فيها عن بعض المكافحين الافريقيين مثل قصيدة
نكروما وقصيدة الي بن بيلا ورفاقه . وربما يدل هذا على ان الفيتوري
لم يفعل بهذه الموضوعات وانما كتبها كما يكتب شعر المناسبات .
وهناك نماذج اخرى على الثرية ورمي الامثال والحكم بطريقة
ساذجة قد لا يتسع المجال هنا للحديث عنها ولكننا نكتفي بسرده بعض
الامثلة فقط :

لا تضعف

(٧) الدكتور لويس عوض - دراسات في الادب والنقد ، ص ١٨٤ .

ان الضعف يميم القلب
لا تسقط ...
لا تلق سلاحك
احرق في الظلمات وشاحك
...

وثمة ملاحظة نالسة تتعلق بتطور فهم الشاعر للحرية .. فلم يعد
التعبير عنها مجرد كلمات حماس ولكنة اصبح اكثر عمقا .. وفي مجال
التعبير عن الحرية ركز الفيتوري على اهمية حرية الكلمة .. وهذا
المفهوم تردد في كثير من قصائد الشاعر :

الساعة منتصف الليل
وعلى الدروب تنام الظلمه
انثى .. ساقان وجمجمه
ما زالت تتاكل غلمه
وصراخ اخرسى .. اسمعه
يتحدر من اعلى القمه
وضحايا تتعذب مثلي
في شوق .. من اجل الكلمه

والملاحظة الاخيرة هي ان الشاعر وان كان قد تطور فنيا منذ صدور
ديوانه الاول الا ان هناك بعض القصائد في ديوانه الاول اكثر جودة من
بعض قصائد ديوانه الثاني مثل هذه الكلمات الرائعة التي قالها فسي
(اغاني افريقيا) :

غدا يمر موكب الجوع بدرينا القدر
فاخضوضري يا سنوات النحط
وانزل يا مطر
واغرق حقول الارز والقمح
واغرق النهر
وامسح بكفك الرمادية احزان الشجر .. الخ.

قلنا ان الفيتوري استطاع ان يعبر بصدق وحرارة وفهم عن قضايا
افريقيا وان يدرك بعمق مشكلاتها وان يعبر عن هذه المشكلات وتلك
القضايا تعبيرا فنيا وانسانيا . فافريقيا وطن الشاعر .. هي ماضيها
وحاضرها ومستقبله . وهي ايضا وسادته التي ينكس عليها في لحظات
القوة والضعف ... وافريقيا شعب وقارة تنحت مصيرها الانساني في
اصرار عجيب . وافريقيا ايضا قضية قبل ان تكون شعب او قارة ..
ولقد عمق الفيتوري ابعاد هذه القضية واتراها وجاس خلالها ببطولة
فشاعرنا هو احد الذين التزموا بقضيتهم حتى النهاية . ومن اجل ذلك
اصدر ديوانين شعريين عن افريقيا .. وهذا في حد ذاته عمل رائع ..
وربما يفودنا ذلك للاجابة على سؤالنا الذي سبق ان طرحناه
للمناقشة في بداية هذه الدراسة بان نقول ان الفيتوري شاعر ذو قضية
وان كانت هناك دروب لم يطأها الشاعر كان من الممكن ان تعمق رؤيته
لواقع قضيتهم ، وان كانت هناك ايضا بعض الاصفاد التي ما تزال تعرقل
خطاه الشاب نحو استكمال كل مقومات وعناصر نجاحه الفني ونموسه
الفكري . الا انه مع ذلك قد برهن على شاعرته واصالته والتزامه
بقضية جوهرية لم يتخل يوما ما عن تعميق دروبها الكثيرة . فشاعرنا
الذي تفجرت اغانيه تنشد الحرية والخلاص والذي احب افريقيا
وعشقها ، استطاع اخيرا ان يرى ضوء الفجر الذي يلوح عن قرب فوق
غاباتها الاستوائية الكثيفة وجبالها الشاهقة التي تتحدى الزمن :

اصبح الصبح .. لنا خلفك يا صبح الحصاد
الف صبح قد نسجناه باضواء العيون
ايها القدام محمولا على سمر الايادي
يا حصاد العرق الدامي .. وميراث الجهاد
ايها التاج على جبهة شعبي .. وبلادي
آه ما اروعك اليوم .. على هذا الجبين

اتيس احمد البياع

القاهرة

الجزء الثاني من رائعة

دار الاداب تقدم

قوة الأبياء

للكاتبة الوجودية المالبة
سيمون دو بوفوار

وفيه تواصل الكاتبة الفرنسية التي وصفت بانها اكبر اديبة وفيلسوفة في عصرنا الحديث مذكراتها
الرائعة التي قرأها القراء العرب في ((مذكرات فتاة عاقلة)) و ((انا وسارتر والحياة)) والجزء الاول من
((قوة الاشياء)) . وهي تخصص فصولا برمتها عن احداث الجزائر وانعكاساتها على المثقفين الفرنسيين ،
ولا سيما موقفها هي مع عدد من كبار الابداء في فرنسا وعلى رأسهم سارتر من ((حرب الجزائر القنطرة))
وتأييدهم لنضال الشعب الجزائري ودفاعهم عن حقوقه ، وما لاقوا بسبب ذلك من اضطهاد في فرنسا
وحرمان وتهديد بالقتل والاعتقال .
والى جانب ذلك فصول ممتعة عن رحلاتها وعلاقاتها بالادباء وتطور صلتها بشريك حياتها سارتر ،
ويتخلل ذلك تأملات عميقة في الحياة والموت والمصير .

الثلث : ٦ ليرات لبنانية

ترجمة عايذة مطرجي ادريس
مراجعة الدكتور سهيل ادريس

صدر حديثا